

بقلم : د. زهير احداذن
مكلف بالدروس : م.ع.إ.إ.

■ ليس من السهل تحديد مفهوم الصحافة الثقافية فهو في الحقيقة مفهوم حديث ينطبق على نوع من الصحف تشبه في شكلها الكتاب سواء كان مضمونها أدبيا أو فكريا أو علميا. وهذا المفهوم لم يصبح منتشرا في العالم العربي وفي الجزائر المسلمة إلا بعد الحرب العالمية الأولى، أما قبل فأن هذا النوع لم يكن قائما بذاته الأنادرا وإنما كانت توجد الصحف بصفة عامة وهذه الصحف كانت تخصص عددا من صفحاتها للاخبار الثقافية والدراسات العلمية قد تقل هذه الصفحات وقد تكثر، وكانت الصحف التي تصدر باللغة العربية في الجزائر تميل بالطبع - وربما مكرهة - الى الاكثار من هذه الصفحات حتى ان تصير مجالات ثقافية كما وقع لمجلة «الشهاب» مثلا، ومن المعلوم ان الصحافة الاستعمارية المكتوبة باللغة الفرنسية عرفت نوع المجلة الثقافية منذ القرن التاسع عشر كما هو الشأن في فرنسا نفسها ولكن ليس المقصود من مقالنا هذا الحديث عن الصحافة الاستعمارية لانه لا يسعنا المجال لذلك، وإنما يكفي ان نشير الى ان وجود هذه الصحافة في الجزائر كان فرصة للتعرف على نماذج مختلفة من الصحافة الثقافية، وقد دفع البعض الى الاقتداء بها وأحيانا المشاركة فيها.

ويجب ان نشير من جهة اخرى الى ان الصحافة العربية الشرقية بما فيها التونسية لم تعرف انطلاقة كبيرة ومكثفة ومتنوعة الا في بداية القرن العشرين ولذا كان وجودها بالجزائر ندرا، زيادة على ان السلطات الاستعمارية كانت تحرس على ان لا يكون الكثير منها بين ايدي الناس، فالتعرف على الصحافة الثقافية العربية كان، اذا من الامور الصعبة على الجزائريين.

ومهما يكن فأننا نستطيع ان نقول ان بداية الصحافة الثقافية في الجزائر كان مع بداية القرن العشرين، شأنها في ذلك شأن الصحافة الاخرى السياسية والاعخبارية، ولقد ساعد على وجود هذه الصحافة عوامل مختلفة نذكر منها إثنين على سبيل المثال لا الحصر، وهما دور جونا، وهو والي عام في الجزائر ودور جريدة الاخبار باللغة الفرنسية.

دور جونا : من المعلوم ان جونا كان يوصف من طرف المعمرين بكونه «عربيا» وكانوا ينتقدون عليه ميله للعرب الجزائريين وتشجيعه للثقافة العربية الاسلامية، ويجب ان نلاحظ ان هذا الانتقاد وان كان صحيحا نوعا ما، فأن جونا نفسه كان يفسره بأنه يخدم أولا وقبل كل شيء مصلحة فرنسا، يجب اذا التأكد من ان جونا لا تهمه الثقافة العربية والاسلامية وان تشجيعه لها انما كان يراه كضرورة حتمية لبقاء فرنسا في الجزائر خلافا لما كان يراه المعمرين وانصار الاندماج.

ونظرية جوناواري هي ان سياسته العربية الاسلامية تدخل الطمأنينة في قلوب المسلمين وتبعدهم عن العنف والثورة، وهكذا رايناها يندفع - بحذر - في هذا الاتجاه، فيتقرب الى العلماء المسلمين وينشط التدريس باللغة العربية ويحافظ على الاسلوب المعمري العربي كما تشاهد بذلك بناية البريد المركزي في قلب العاصمة بالجزائر وغيرها من البنايات وغير ذلك من المبادرات التي قام به هذا الوالي العام والتي اثارت تخوفات الغلاة من المعمرين.

وداخل هذه السياسة العامة تندرج كذلك الصحافة بصفة عامة والصحافة الثقافية خاصة، وبالفعل في عهد جوناواري انطلقت الصحافة الاهلية الجزائرية سواء كانت مكتوبة بالعربية او بالفرنسية ووجدت تشجيعا وحماية من طرف السلطات الاستعمارية خلافا لما كان من بعد وعرفت نوعا من الازدهار، قل ان عرفته من بعد، فكان موقف جوناواري اذا عاملا قويا في ظهور الصحافة الثقافية وكان اصدار جريدة الاخبار باللغة الفرنسية، في وقته وبأعانة مالية منه مثالا للاقتداء.

دور جريدة الاخبار : وبالفعل فأن ظهور هذه الجريدة مقترن بعهد جوناواري في الجزائر في سنة 1902، ولم تخف هذه الجريدة علاقتها بجوناواري وتحمسها لسياسته العربية الاسلامية التي كانت تعرف في ذلك الوقت بسياسة المشاركة، يعني اشراك المسلمين في سياسة التعمير (او الاستعمار) وكان يدير هذه الجريدة رجل فرنسي متفتح اسمه بروكاند معروف بشجاعته المعنوية والفكرية والذي استطاع بمواقفه وبجريته ان يهيمن على الفكر السياسي الجزائري الناشئ عند النخبة الجزائرية (المكونة بالعربية او بالفرنسية) وكان مخلصا لجوناواري وسياسته وفتح صفحات جريدته لشرح هذه السياسة والدفاع عنها، بل انشأ اعمدة مخصصة لشرح مبادئ الاسلام والتعريف بالحضارة العربية من جميع اوجهها، وجند لذلك اقلاما، اصبحت اليوم معروفة عند الجزائريين خصوصا، مثل اليزابيت ابرارو والدكتور مادورور مترجم الف ليلة وليلة، وكذلك اقلاما جزائرية مثل محمد بن رحال الذي كانت تجمععه بروكاند صداقة كبيرة الى درجة ان وقوف السلطات الاستعمارية دون نجاحه في انتخابات المجالس الولائية في سنة 1927، كانت بمثابة صدمة كبيرة جعلت بروكاند يقنط ويشك في بقاء فرنسا بالجزائر وقد عبر عن ذلك في جريدته الاخبار، ولاننسى كذلك ان بروكاند هو الذي جاء بعمر بن قنور الجزائري واسند اليه رئاسة تحرير القسم العربي من جريدته في سنة 1907.

وكانت هذه الجريدة تصدر بانتظام كل اسبوع وكان لها رواج كبير في الاوساط الاسلامية وكانت مقالاتها تنقل الى الجرائد الاهلية الاخرى التي بدأت تصدر كما اشرنا الى ذلك، فكانت هذه الجريدة من المنشطين الاساسيين في الوسط الاسلامي ومن العوامل المشجعة لحياء التراث العربي الاسلامي تحت المراقبة الفرنسية بالطبع وكانت تنوه بالصحف الجزائرية التي تخوض هذا الميدان.

فوجود جوناواري بالجزائر وظهور جريدة الاخبار في هذه الظروف مهد الطريق لبروز الصحافة الثقافية في الجزائر ومن الممكن ان نعتبر جريدة الاخبار كجريدة ثقافية لما تحتوي عليه من صفحات ثقافية ولكن امتنعنا عن ذلك لان الاتجاه العام للجريدة كان سياسيا واخباريا كما امتنعنا ان نعتبر

صحفا اخرى كانت تصدر قبل الاخبار كجرائد ثقافية لان اتجاهها كذلك كان سياسيا مثل جريدة «المبشر» التي بدأت تصدر في سنة 1848 والتي كانت تنشر مقالات ثقافية وقصائد شعرية وكان يكتب فيها محمد بن مصطفى ابن خوجة والحفناوي بن الشيخ وكذلك جريدة الصدا التي كانت تصدر ببافيس ابتداء من سنة 1876 وكانت تنشر صفحات ثقافية وكان يكتب فيها علماء جزائريون مثل الشيخ البدوي والشيخ المجاوي وغيرهما، فهذه كلها لم تكن صحفا ثقافية وانما كانت صحفا سياسية واننا نعتبر ان الصحف الثقافية حسب التعريف الذي اعطيناه في البداية يبدأ ظهورها مع بداية القرن العشرين تحت تأثير العوامل التي اشرنا اليها، وكان تطورها من بعد بطيئا ومن الممكن ان نقسمه الى مراحل ثلاثة .

■ فالمرحلة الاولى تبدأ سنة 1900 وتنتهي مع بداية الحرب العالمية الاولى، وهذه المرحلة هي مرحلة التكوين بحيث كان الطابع الصحافي يغلب على الاشكال الاخرى، وكان يعسر التمييز بين الصحيفة الثقافية والصحيفة السياسية وكانت الصحف التي تصدر باللغة العربية هي التي كان يطغى عليها الطابع الثقافي في حين لا نستطيع ان نذكر ولو صحيفة ثقافية واحدة باللغة الفرنسية رغم كثرتها كما انه يصعب ادراج صحافة عمر راسم وصحيفة عمر بن قدير في هذا النوع من الصحف لمزجها السياسة بالثقافة و عليه فان هذه المرحلة تمتاز بقلّة الصحف الثقافية ولقد وجدنا اثنتين فقط سوف نتحدث عنها من بعد وهما «المغرب» و«الاحياء» .

والمرحلة الثانية تمتد الى الحرب العالمية الثانية وظهرت فيها ما يسمى بالمجلة الثقافية وتعددت الصحف الثقافية التي استمرت تصدر على شكل الصحف الثقافية مع مزجها الثقافة بالسياسة، وبدأت تظهر المجالات الثقافية باللغة الفرنسية وسوف نتحدث عن هذه المرحلة في فرصة اخرى ويكفي ان نذكر بالاخص مجلتيهما لهما ميزة خاصة في هذه المرحلة وهي جودتهما ورواجهما وهما «الشهاب» بالعربية و«صوت المساكين» باللغة الفرنسية .

والمرحلة الثالثة : تنتهي باندلاع الثورة ولعل ما يميزها اكثر هو اختفاء المجلة الثقافية باللغة العربية ما عدى الدينية منها وكثرة المجالات الثقافية باللغة الفرنسية وتنوعها مع التفتن في اشكالها وتركيز مضمونها على الثقافة التاريخية وعلى التحليلات السياسية والاجتماعية وفي هذا الصدد يلاحظ ظهور المجالات الثقافية الاولى التي تساند الحركة الوطنية التي تطالب باستقلال الجزائر مثل «الضمير المغربي» .

وبصفة اجمالية فان نوع المجلة الثقافية لم يعرف رواجا كبيرا في الجزائر مثل ما عرفته الصحف الاخرى نظرا للوضع السياسي الذي يعتبر عقبة كبيرة تعرقل هذا الرواج ونظرا كذلك لولوية الكفاح السياسي ولقد اعطت الثورة المسلحة اهمية ملحوظة للنشاط الثقافي، ونشرت مجلات غير دورية ومجلات اخرى مصورة تعبيرا صادقا للكفاح المسلح .

ورغم ضعف هذا النوع من الصحف الذي لم يجد الى يومنا هذا انطلاقة ينتظرها الجميع فاننا سنحاول ان نقدم نماذج تمثل كل مرحلة من المراحل الثلاثة التي ذكرناها، وفيما يخص المرحلة الاولى فاننا نقدم الصحيفتين اللتين اشرنا اليهما سابقا وهما «المغرب» و«الاحياء»

■ المغرب : وهي الجريدة الاولى التي تصدر كلية بالعربية الفصحى ، نعم كانت هناك جريدة «المبشر» ولكن «المبشر» العربية ليست الا نسخة عن المبشر الرسمية باللغة الفرنسية وزيادة على هذا فان المبشر كانت لسان حال الحكومة الفرنسية والناطق الرسمي «للوالي العام» بالجزائر، اما المغرب فهي ملك خاص يتصرف فيها صاحبها كما يشاء ، اننا نذكر هذه التفرقة نظرا للاهميتها ولكن ليست هي في الحقيقة الا صورة مزيفة للواقع الجزائري آنذاك وهي ان مثل هذه الصحف لا تصدر الا بموافقة الوالي العام ان لم نقل بأيماء منه ، ثم فهمي ، وان كانت خاصة ، تأخذ تمويلها بكيفية او اخرى من الولاية العامة التي توجهها .

ويملك هذه الصحيفة فرنسي كان معروفا بنشاطه في ميدان النشر وخصوصا نشر التراث العربي الاسلامي وهو فانطانا صاحب المطبعة العربية المعروفة بأسمه ولعلها اولى مطبعة تطبع بالعربية في الجزائر ، ولقد طبعت في ذلك الوقت (بداية القرن العشرين) اكثر من خمسين كتابا عربيا مصحوبا احيانا بترجمة باللغة الفرنسية ، ويرجع عهد انشائها الى سنة 1867 في وقت حكم نابليون الثالث وكانت تعرف بالمطبعة الشرقية .

ولقد صدرت المغرب يوم الجمعة 12 محرم 1321 الموافق 10 افريل 1903 ، وكانت تسمى نفسها بأنها جريدة سياسية اقتصادية علمية ادبية تجارية ، والذي يهمنا نحن هو ان هذه الجريدة علمية ادبية وهذا المصطلح كان يستعمل في ذلك الوقت للدلالة على ان الجريدة ثقافية او ان اهتماها الاساسي منصب على الميدان الثقافي اكثر من غيره وفي العهد الاول من الجريدة فان الافتتاحية التي كتبها صاحب الجريدة تتوجه الى القراء وتشرح الاسباب التي ادت الى اصدارها فتقول انه «لا توجد جريدة عربية في الجزائر ما عدى الجريدة الرسمية التي تنحصر فيما تصدره الحكومة من الاوامر التي لا تهم مطالعتها الا طائفة معلومة من افراد الرعية» . . . وتقول «ان هذا الخلل ينبغي سده» وانه «يجب مشاركة افراد الامة الاسلامية في الوجدان وفي كثير من العقلية والمعتقدات» ولهذا توجه الى «كتاب اهليين خاصة ظنا منها انهم اولى من غيرهم بمخاطبة اخوانهم وارشادهم . . .» .

وتشرح الجريدة الغاية من تأسيسها في النقاط التالية :

- السعى في التأليف بين الاهالي من سكان هذا الوطن وبين الامة الفرنسية .
- الفحص في الاصلاحات اللازمة لترقي الامة الاسلامية .
- استلفات انظار الهيئة الحاكمة نحو حاجياتها .
- كشف الغطاء عن الحقائق السياسية والاقتصادية .
- نشر الاخبار المتعلقة بالاقطار الاسلامية والمسائل الاقتصادية والعلمية والادبية .
- الاعتناء بأشهار مؤلفات مشاهير علماء الاسلام .

ونستطيع ان نستخرج من هذه القائمة ثلاث ملاحظات :

- 1 - الهدف الاساسي من اصدار هذه الجريدة هو سياسي وهو استعمال الشعور الديني والثقافة الاسلامية للتقرب من المسلمين الجزائريين .

2 - استعمال كلمة الامة الاسلامية له ابعاد سياسية مرتبطة بالدور الذي كانت فرنسا تريد ان تلعبه في العالم الاسلامي في ذلك الوقت.
3 - احياء التراث الاسلامي هو كذلك مرتبط من ناحية اخرى بالابعاد التجارية التي تسعى ورائها مطبعة «فانطانا».

وتحقيقا لهذه الخطة فإن صاحب الجريدة اعلم عن موافقة عدد من العلماء الجزائريين للمشاركة في التحرير ونشر قائمة تحتوي على 18 اسما متبوعا بوظيفة صاحبه نوردها هنا للفائدة العامة.

- 1 - علي بن الحاج موسى امام سيدي عبد الرحمان.
- 2 - عبد القادر المجاوي مدرس بمدرسة الجزائر.
- 3 - السعيد بن احمد بن زكري مدرس بمدرسة الجزائر.
- 4 - عبد الحليم بن سماية مدرس بمدرسة الجزائر.
- 5 - عمر بن بريهمات مدرس بمدرسة الجزائر.
- 6 - علي العمالي مدرس بمدرسة الجزائر.
- 7 - محمد بن شنب مدرس بمدرسة الجزائر.
- 8 - محمد بن مصطفى بن خوجة مدرس بجامع سفير.
- 9 - خطيب بن مصطفى باشا مدرس بجامع سيدي رمضان.
- 10 - خطيب عمر بن احمد مدرس بالجامع الاعظم.
- 11 - محمد ولد معمر موالح المدرس ببوزريعة.
- 12 - مصطفى بن الحاج موسى النائب المالي.
- 13 - محمد بن صيام النائب المالي.
- 14 - علي بوضربة الطبيب بالجزائر.
- 15 - الحبيب بن قطاط جمعية التجار بالجزائر.
- 16 - مصطفى ولد عيسى ترجمان بأدارة الاملاك.
- 17 - حمود شعلال موظف بأدارة العمالة.
- 18 - مصطفى بن احمد الشرشالي محرر بالجريدة الرسمية.

هذه القائمة تعطي لنا صورة حية عن النخبة المثقفة التي كانت موجودة في بداية القرن العشرين في مدينة الجزائر وكلهم مزودون بثقافة عربية عالية وعند البعض منهم نجد كذلك ثقافة فرنسية عالية. وما يلاحظ ان التدريس كان موجودا بالمساجد زيادة على اقامته بالمدارس كما يلاحظ كذلك ان هذه الوظائف كلها ترتبط بكيفية او اخرى بالسلطات الفرنسية.

وما لا شك فيه ان لقاء هاؤلاء العلماء في هيئة تحرير كان من شأنه ان يعطي للجريدة طابعا ثقافيا ذا قيمة كبيرة، وبالفعل فإن هذه الجريدة بدت تنشر مقالات ادبية وعلمية واقتصادية مختلفة تتحدث عن مواضيع شتى مثلا : «التجارة والمسلمون» للحبيب بن قطاط و«مشاهير العرب الذين ترسل بهم الامثال» لعبد القادر المجاوي وكانت بعض المقالات تنشر بتسلسل فمقال المجاوي مثلا نشر خلال 8 اعداد ونشرت عددا كبيرا من القصائد لمحمد بن شنب كما ان الجريدة كانت تنشر الاخبار الثقافية وخصوصا النشاط الثقافي بتونس والمغرب والدولة العثمانية.

وفي العدد التاسع من الجريدة بدأ يظهر اتجاه سياسي خالص بحيث بدأت المقالات الثقافية تقل ولكن لا تختفي بحيث حافظت الجريدة على طابعها الثقافي ثم تكونت فيها هيئة تحرير متكونة من خمسة اعضاء فقط وهم على بوضربة ومحمد بن مصطفى وعبد القادر المجاوي وعمر بن بريجات ومصطفى الشرشالي، واصبح للجريدة مراسلون ادباء وعلماء بالقطر الجزائري مثل ابن الموهوب محمد المولود من قسنطينة.

وبما ان المغرب كانت تصدر مرتين في الاسبوع يومي الثلاثاء والمجعة وبما ان دوامها لم يكن الا ثلاثة اشهر وثمانية عشر يوميا، فانه لم يظهر منها الا اثنان وثلاثون عددا وقد توقفت بالفعل في 28 من شهر جويلية سنة 1903 وهي سنة ظهورها وقد نشرت الجريدة في عددها الاخير بلاغا الى قرائها تخبرهم بأنها تتوقف عن الصدور وانها تشكر المشتركين وانها سوف ترجع لهم ثمن اشتراكاتهم المتبقية ولا تذكر الجريدة اسباب توقفها ولم نعر على اشارة في مكان اخر تساعدنا على تفسير ذلك ويحتمل ان يكون ذلك ناتجا عن تحلي العلماء والادباء المذكورين عن المشاركة كما ان ليست لدينا معلومات عن رواج هذه الجريدة في الجزائر ولا ندري هل استطاعت ان تسمع صوتها خارج مدينة الجزائر وقسنطينة، والشئ الذي نعرفه فقط انها قدمت لمحمد عبده عند زيارته الى الجزائر واثنى هذا الاخير على الجهود التي يبذلها محررو الجريدة.

2 - الاحياء : هي المجلة الاولى التي تصدر باللغة العربية شكلا ومضمونا شكلا لانها تستعمل الحجم الصغير الذي تستعمله المجلات الحديثة وهو بالنسبة لمجلتنا 20x15 بالغلاف الملون والفهرست على الصفحة الاولى، ومضمونا لانها لا تخرج المقالات والاخبار السياسية بالمقالات الثقافية بل هي لا تنشر بتاتا المقالات السياسية وتقول عن نفسها انها مجلة عربية ادبية علمية وجاء في الافتتاحية من العدد الاول . . . «اما بعد فانه لما ثبت بالمشاهدة والعيان في جميع اقطار الاسلام خصوصا مصر وتونس والشام نفع ابناء اوطانهم وتنوير افكارهم انما كان باستعمال الجرائد الادبية والمجلات العلمية خدمة للغة العربية التي هي لغة الادب والبيان لغة البلاغة التي عرفها القرآن لغة العلم والدين . . فبادرنا لابرار هاته المجلة على وجه حسن واسلوب مستحسن رغبة في الثواب ونفعا للطلاب».

عندما نقرأ هذه الجمل المصاغة بلغة عربية سليمة والمليئة بشعور فياض بالعطف والمحبة يبادرنا الى الذهن سؤال واحد : كيف كان يمكن اصدار مجلة مثل هذه في بداية القرن العشرين او بكيفية اخرى هل ليس هناك شيء وراء هذه المجلة يختلف عن الثواب الديني الذي تشير اليه المجلة، الجواب على هذا السؤال يتجلى بعد التعرف على صاحبة الجريدة.

ان صاحب هذه الجريدة امرأة فرنسية مستشرقة اسمها كريمة ديريوي، وكانت تقول انها مسلمة واتخذت اسما لها عربيا تحسن اللغة العربية التي درستها في المدرسة العليا للادب (كلية الاداب) بالجزائر وتحصلت على دبلوم من هذه المدرسة وعلى جائزة من الدرجة الاولى ويصادف وجودها بالجزائر رغبة الوالي العام جونار في استعمال الكفاءات الفرنسية في خدمة سياسته الجديدة المحبة للمسلمين فاوحى اليها بالمبادرة بأصدار مجلة عربية تجمع النخبة الجزائرية المثقفة بالعربية وتفتح لهم صفحات المجلة للقيام بالنشاط الثقافي كما فعلت من قبل جريدة المغرب وتقول ديريوي في العدد

الاول من المجلة «... وليس يوجد من ينشر حكم (اللغة العربية) بعاصمتنا وان كان فيها علماء اجلاء وتحارير فضلاء ولهم البلاغ الطويل في هذا الميدان فهم لم ينحو نحوه وكان ما كان...» ولعل هذه الاشارة تؤكد لنا ما قلناه عن تحلي العلماء عن جريدة المغرب، فكلفت ديريوا اذا بمحاولة اخرى وبأسلوب جديد وهو الابتعاد عن تغطية النشاط السياسي والدفاع عن اللغة العربية والدين الاسلامي كما سنراه من بعد ولكن في ظروف تشبه الظروف التي ظهرت فيها جريدة المغرب وهي ان التوجيه السياسي يخضع ويندرج في سياسة جوناو وان ملكية المجلة تكون فرنسية محضة موزعة بين ديريوا وفانطانا صاحب المطبعة وشخص اخر يحسن هو كذلك اللغة العربية ويلعب فيها بعد دورا ملحوظا في تكوين الصحافة الجزائرية الاسلامية واسمه لوي بودي بحيث كان الوكيل المتصرف في مجلة الاحياء وخلافا لما كان في جريدة المغرب فان الاشراف على التحرير اسند لديرىو على ان تجند حولها النخبة الجزائرية المثقفة باللغة العربية ولكن يبدو ان هذه المهمة لم تكلل بالنجاح ولم يلب نداء الاحياء الا عدد قليل من العلماء لا نعرف عنهم اليوم شيء يذكر مثل علواني الذي اسندت اليه فيما بعد رئاسة التحرير والذي كتب سلسلة من المقالات عن تاريخ الاسلام او الحاج صالح وزهري علي وادريس الحرشي ومحمد سلطان وهي اسماء ليس لها نشاط ثقافي او لم نثر عليه الي يومنا هذا واستمرت صاحبة المجلة في جهودها طيلة ثلاثة اشهر استطاعت فيها ان تصدر سبعة اعداد لان المجلة كانت نصف شهرية ثم توقفت المجلة وغادرت ديريوا الجزائر والتحقت بالوظائف الدبلوماسية الفرنسية في الشرق، وهكذا نستطيع ان نقول ان مجلة الاحياء ليست هي الا محاولة اخرى من الوالي العام جوناو للتقرب من المسلمين الجزائريين واشعارهاؤلا بأن سياسة فرنسا في الجزائر ليست موجهة ضد الحضارة العربية الاسلامية بل هدفها احياءها ولعل فشل المجلة ارغم المشرفين على هذه السياسة ان يتجهوا مباشرة الى العلماء الجزائريين بدون وسطاء فرنسيين ويكلفهم بأصدار مجلات وجرائد بأسمهم وذلك ما وقع ابتداء من سنة 1907 مع ظهور «كوكب افريقيا» لمحمود كحول.

ومجلة الاحياء صدرت بأول محرم 1325 الموافق لـ 14 فبراير 1907 وتوقفت في 14 ماي 1907، وكان شعارها التقدم والاخوة وهما كلمتان تلخصان سياسة جوناو وكان هدفها احياء اللغة العربية في الجزائر وبعث الحضارة الاسلامية ولندرك حقيقة هذه السياسة ينبغي ان نتذكر ان السياسة الاستعمارية في الجزائر اخذت منعرجا خطيرا جدا بعد ثورة المقراني وثقوت نابليون الثالث بحيث مرت ثلاثون سنة من القتل والتشريد ومحاربة جميع المقومات الاساسية للشعب الجزائري وخصوصا لغته ودينه بجميع الوسائل ولم يأت جوناو الى الجزائر الا ليبدل هذه السياسة بسياسة اخرى اقل قساوة وعندما نقرأ مقالات الاحياء ندرك الحالة التعسة التي وصل اليها الشعب الجزائري في لغته ودينه مع بداية القرن العشرين فقد كتبت ديريوا في العدد الخامس من المجلة مقالا بعنوان «اللغة العربية» تقول فيه ذهب الاعوام ومرت السنون واخواننا اهالي الجزائري في غفلة وتفريط عن حفظ لغتهم العربية التي اصبحت في تناقص وتقهقر غربيين حتى صار العارفون بها والكتابون يعدون على الاصابع في هاته المملكة الواسعة الاطراف التي اهلها كانوا ولم يزالوا على شيء من الذكاء والاستعداد للاخذ من كل فن بطرف، وهي محاولة لاترضي الغيورين عن هاته اللغة التي شربت «البلاغة...»

ان هذا الكلام مدهش حقا وتنسى ديريو ان تنطرق الى اسباب هذه الحالة بل هي كأنها ترجع السبب كله على الجزائريين فتقول في خاتمة المقال «فهل ينهض الجزائريون الى تدراك امرهم في لغتهم التي هي سياج دينهم ونقطة دائرة مجدهم ولا ريب في ان الحكومة تضطر اذ ذاك الى معاونتهم وتنشيطهم كما اضطرت الحكومة التونسية الى ذلك او يرومون ان يبقوا في زوايا التأخر. . » انه كلام جديد في بداية هذا القرن ومما لا شكل فيه ان نعمته بقى يتردد بها بعض من المسلمين زمانا طويلا حتى بداية الثورة، كما كانوا يرددون نغمة اخرى تتعلق بالنهضة الاسلامية وعبرت عنها كذلك ديريو في مقال لها نشر في العدد الرابع تحت عنوان «النهضة الاسلامية والغاية التي ترمي اليها» تقول : « فالامة التي تحافظ على مركزها وتهمل واجباتها الاجتماعية ويتقلص ظل العلم من ديارها تنحط من شامخ عزها الى حيث المذلة والهوان. . . » وبعد ان عرفت النهضة الاسلامية بأنها نهضة علم تساءلت عن غاية هذه النهضة «هل هي تعصب وانتقام من اوربا ام حركة اصلاح وعلم وتهذيب» فتجيب «الحاصل ان الاسلام ليس كما وصفه ارنست رنان ولا كما قال عليه المسيو هانوتوبل هو دين سماحة خال من التعصب المذموم ينبغي لفرنسا ان تخطب ود اهله وتذود عنهم خصوصا في الظروف الحاضرة التي يتظاهر لهم فيها بعض الدول بالموودة والحماية. . . » وهذه الافكار هي التي نادى بها من بعد عمر راسم وعمر بن قدور واحتمت بها بعد الثلاثينات جمعية العلماء المسلمين.

د. زهير إحدادن

